

تاريخ أوروبا في العصور الوسطى

تأليف
دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
بجامعة القاهرة وبيروت العربية

والاستاذة المكملة
السيدة عفيف

١٩٧٦

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص.ب. ٧٤٩

الباب الرابع

الاسلام

على الرغم من أن الاسلام يعتبر ظاهرة شرقية من الناحيتين الدينية والحضارية الا أن أثره في أوروبا العصور الوسطى كان خطيرا بحيث لا يمكن تتبع تاريخ أوروبا في تلك العصور دون الاشارة الى هذا الأثر . حقيقة أن الدولة الاسلامية في أقصى اتساعها لم تضم سوى أجزاء محدودة من أوروبا مثل أسبانيا وصقلية ، فضلا عن بعض جزائر أخرى معروفة في البحر المتوسط ، ولكن يجب أن نذكر أن هذه الدولة ضمت جميع البلاد المطلة على الشواطئ الجنوبية والشرقية للبحر المتوسط أي بلاد الشام ومصر وشمال افريقية ، في الوقت الذي كانت حضارة أوروبا لا تزال ترتبط الى حد كبير بذلك البحر . وبعبارة أخرى فإن حركة التوسع الاسلامية ترتب عليها تحطيم الوحدة الحضارية للبحر المتوسط مما جعل مؤرخا مثل بيرين يختار هذه الحركة بداية حقيقية للعصور الوسطى وحدا فاصلا بينها وبين العصور القديمة . هذا فضلا عن أن الدولة الاسلامية غدت بحكم موقعها الجغرافي بمثابة الحلقة التي ربطت القارات الثلاث أوروبا وآسيا وأفريقية ، وبالتالي انتقل عن طريقهما التراث الحضاري للشرق الى أوروبا العصور الوسطى (١) .

وتختلف الغزوات التي تعرضت لها أوروبا من جانب العرب منذ القرن السابع في طابعها العام وهدفها ونتائجها عن تلك التي تعرضت لها أوروبا قبل ذلك من جانب الجرمان . فهذه الغزوات الأخيرة قامت بها شعوب قديمة قدم الامبراطورية الرومانية نفسها ، وربطتها بالامبراطورية صلات تحالف

(1) Deanesly : op. cit. pp. 185-187.

أولاء أو حرب وعداء قبل أن تقوم بحركتها الشاملة التي أدت الى غزو أراضي الامبراطورية والاستقرار داخل حدودها . أما العرب الذين غزوا الامبراطورية في القرن السابع ، فلم تربطهم بها صلات سابقة على شيء من الأهمية ، وكل ما هنالك هو أن الامبراطورية الرومانية اكتفت باتخاذ بعض اجراءات لحماية أطراف الشام من خطر القبائل الرحل الضاربة في الصحارى المجاورة ، هذا فضلا عن اقامة دوائى الحراسة على حدود الشام لحمايتها من الهجمات المعادية من جانب الفرس أو غيرهم . وفيما عدا ذلك كان آخر ما يتوقعه الرومان هو أن تخرج جيوش من جوف البلاد العربية لتهدد العالم الرومانى ، بل ابتلاع أجزاء واسعة من ذلك العالم (١) .

وقد سبق أن رأينا كيف كان الفرس والروم فى شغل شاغل بالنزاع والحروب المستمرة فيما بينهم عن الاهتمام بما كان يجرى فى شبه الجزيرة العربية من مولد الرسول محمد عليه الصلاة والسلام سنة ٥٧٠ وهجرته الى المدينة سنة ٦٢٢ ، ثم ما تبع ذلك من انتهاء حالة الفوضى والتفكك السياسى والنزاع القبلى التى عاش عليها عرب الشمال قرونا طويلة . وبعبارة أخرى فإن انتصار رسالة خاتم النبيين أدت الى جعل العرب أمة واحدة يخضعون لحكومة واحدة ويدينون بدين واحد شعاره لا اله الا الله محمد رسول الله . على أن الرسالة المحمدية لم يقصد بها العرب وحدهم ، لأن الله أرسل محمدا شاهدا ومبشرا ونذيرا ، ليهدى الناس كافة الى دين الحق ، ومن ثم غدت مهمة الرسول بعد أن تم نشر الاسلام فى بلاد العرب أن يدعو الأمم المجاورة لاعتناق ديانته والايمان برسالته . ويبدو أن بعض الرسل الذين أوفدهم النبي الى ملوك الدول المجاورة وحكامها صادفوا اعراضا بل امتهانا ، مما جعل النبي يعد العدة للغزو والجهاد ، وان كانت موجة الفتوح العربية لم تشتد وتوسع الا بعد وفاة النبي نفسه سنة ٦٣٢ .

وليس المعجيب فى أمر الغزوات هو أن العرب تجاسروا على مهاجمة

(1) Pirenne : Mohammed and Charlemagne. p. 147.

الفرس والروم ، وهما أكبر امبراطوريتين عرفهما العالم عند مستهل القرن السابع ، وانما العجيب هو أن العرب غزوا فارس في الوقت نفسه الذي غزوا دولة الروم ، وأحرزوا انتصاراتهم الضخمة على الدولتين في وقت واحد . ذلك أن الاحتكاك بين المسلمين والروم بدأ فعلا في بادية الشام سنة ٦٣٩ ، أى في العام التالي مباشرة لانتهاء الحرب بين الروم والفرس (١) . وكانت دولة الروم - أو الدولة البيزنطية - تعاني حينئذ الأمرين من جراء ما تطلبته حروبها ضد فارس من جهة وضد البرابرة المهاجمين لأراضيها في البلقان من جهة أخرى ، زيادة على النزعة الانفصالية التي أخذت تقوى عند أقباطا مصر والأراميين في سوريا والأرمن عند أطراف آسيا الصغرى ، مما هنده كيان الدولة ووحدتها تهديدا خطيرا (٢) . ومهما يكن من أمر فإن موجة الفتوح العربية لم تتخذ شكلها الكاسح الا عقب وفاة الرسول ، أى منذ خلافة أبي بكر الذي بادر بايقاد جيشين لغزو الروم والفرس سنة ٦٣٣ . وهكذا أخذت الجيوش العربية - بقيادة أبي عبيدة الجراح - تعمل في الشام ضد الروم ، في حين كان القسم الثاني من هذه الجيوش - بقيادة خالد بن الوليد - يعمل في العراق ضد الفرس (٣) . وقد حاول هرقل - امبراطور الروم - ارسال قوة بقيادة أخيه تيودور لانقاذ الموقف في فلسطين ، ولكن القائد العربي - خالد بن الوليد - أنهى مسرعا من العراق لنجدة اخوانه بالشام ، وبذلك أمكن انزال هزيمة ساحقة بالقوات البيزنطية في موقعة أجنادين سنة ٦٣٤ (٤) . وعندما توفي الخليفة أبو بكر في هذه السنة السابقة ، خلفه عمر (٦٣٤ - ٦٤٤) الذي اتسمت الفتوح الاسلامية في عصره ، فاستولى المسلمون على دمشق سنة ٦٣٥ ثم على حمص بعد قليل ، وعندئذ تار هرقل وحشد ثمانين ألفا من رجاله لقتال العرب ، ولكن خالد أنزل هزيمة جديدة ساحقة بالجيوش البيزنطية عند اليرموك سنة ٦٣٦ . وقد خيل لهرقل في هذه المرحلة أن يتولى قيادة الجيش البيزنطي بنفسه ضد المسلمين ، ولكنه سرعان

(1) Oman : The Dark Ages, p. 216.

(2) Cam. Med. Hist. Vol, 2, p. 231.

(3) Idem pp. 338-339.

(4) Idem, p. 341.

ما استكشف أنه لم يعد يقوى على مثل هذا الجهد بعد أن جاوز الخمسين من عمره وأخذ المرض يدب في جسده . وإذا كان هرقل قد أمضى سنتي ٦٣٥ ، ٦٣٦ في جبهة الشام ، إلا أنه سرعان ما أيقن صعوبة مقاومة العرب فترك بيت المقدس تقح في أيديهم (٦٣٧ - ٦٣٨) (١) . ويروى القلقشندي أن هرقل عندما أيس من أمر الشام خرج الى الرها ، حيث وقف على مرتفع والتفت الى الشام وقال « السلام عليك يا سوريا ، سلام لا اجتماع بعده ، ولا يعود اليك رومي بعدها الا خائفا » . ثم عاد الى القسطنطينية (٢) .

ولم تكن انتصارات العرب على الفرس أقل سرعة وأثرا من انتصاراتهم على الروم . ففي سنة ٦٣٧ كان العرب قد فتحوا العراق ، وفي سنة ٦٤١ أحرز العرب انتصارا عظيما على الفرس عند نهاوند مما فتح أمامهم الطريق الى قلب بلاد فارس (٣) . ولم تجد مقاومة الفرس العنيفة في وجه العرب الذين تم لهم القضاء على يزديجرد الثالث آخر موك بنى ساسان سنة ٦٥٢ وبذلك اختفت الملكية الفارسية من الوجود وتم للعرب فتح فارس (٤) .

وفي هذه الأثناء استمرت القوات العربية التي اجتاحت بلاد النهرين تهاجم الأطراف الشرقية للدولة الرومانية من جهة الجنوب ، فضلا عن مهاجمتها من شمال الشام . وقد بذل الامبراطور هرقل محاولة يائسة لانقاذ شمال الشام والعراق من أيدي المسلمين ، فأرسل بعض جيوشه لهذا الغرض ، ولكنها منيت بالهزيمة ، واضطرت الى الانسحاب ، وبذلك سقطت المدن والمنازل المهمة الموجودة في شمال العراق والشام مثل ماردين والرها وميافارقين (٦٣٨ - ٦٣٩) . وباستيلاء العرب على قيصيرية سنة ٦٤٠ فقدت الدولة البيزنطية آخر معاقلها جنوبى طرسوس وبذلك جاء دور مصر وشمال افريقية (٥) . ذلك أن العرب فتحوا مصر سنة ٦٤١ أى قبل أن ينتهوا من فتح فارس . ويعتبر فتح مصر بالذات مثالا واضحا على عظم الخسارة التي منيت بها المسيحية ، كما يتخذ دليلا قويا على مدى ضعف الامبراطورية

(1) Diehl & Marcais : op. cit. pp. 190-192.

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٣٩٧ .

(3) Cam. Med. Hist. Vol, 2. p. 347.

(4) Orton : op. cit. pp. 80-81.

(5) Oman : The Dark Ages. p. 220.

البيزنطية وانحلالها السياسى (١) * وبعد أن فتح العرب برقة سنة ٦٤٣ توقفت موجة الفتوح العربية قليلا بسبب ما قام فى جوف الدول الاسلاميه الناشئة من فتنة انتهت بقيام الخلافة الأموية فى دمشق سنة ٦٦٠ ، ومن ثم استأنف العرب فتوحهم بنفس القوة والنشاط * وكان أن أخذ العرب فى فتح ولاية أفريقية سنة ٦٦٤ ، حيث أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان لتخلف قرطاجة حاضرة للبلاد (٢) * وكانت حروب المسلمين فى شمال أفريقية طويلة وشاقة ، لأنهم لم يصطدموا هناك بقوة الجيوش البيزنطية فحسب ، بل كان عليهم أيضا أن يتغلبوا على مقاومة البربر المعروفين بقوة المراس * ومهما يكن من أمر فان قرطاجة سقطت أخيرا فى يد حسان بن النعمان سنة ٦٩٧ ، وإن كان نفوذ الخلافة الاسلامية لم يستقر تماما فى شمال أفريقية قبل سنة ٧٠٨ بفضل جهود موسى بن نصير *

وهكذا تحول شمال أفريقية بأكمله من الحضارة اللاتينية الى الحضارة العربية ومن الديانة المسيحية الى الديانة الاسلامية ، حتى البربر الذين طالما أظهروا عنادا يسترعى الانتباه ضد الغزاة السابقين ، سرعان ما اندمجوا فى تيار الحضارة الجديدة وأصبحوا مسلمين متحمسين * وبذلك مرت سبعمئة السنة التى سيطرت فيها أوروبا على شمال أفريقية دون أن تترك أثرا فى تلك البلاد سوى الأساطير والأطلال ، فالمسيحية اندثرت ، والحياة الرومانية ذبلت ، والمدن تركها الرومان ليعودوا أدراجهم الى أوروبا (٣) *

على أن المسلمين لم يقنعوا بفتح شمال أفريقية حتى المحيط الأطلسى وإنما تمكنوا من الاستيلاء على سردينيا ٧١١ ، كما عبر طارق بن زياد المضيق المعروف

(1) Eyre : op. Cit. p. 63.

(2) Orton : op. cit. p. 81.

(3) Vasiliev : op. cit. Tome I, p. 287.

باسمه واستطاع فتح أسبانيا فيما بين سنتي ٧١١ ، ٧١٣ (١) . وافتتح أسبانيا بدت خسارة الكنيسة المسيحية واضحة جلية ، إذ فقدت بلادا ارتبطت بها أصول المسيحية الأولى مثل بلاد الشام ومصر ، فضلا عن بلاد أخرى بمثابة أجزاء أساسية من الوطن المسيحي مثل شمال أفريقية وأسبانيا . وفي جميع هذه البلاد أقبلت نسبة كبيرة من الأهالي على اعتناق الاسلام « عن اختيار واردة حرة » (٢) . وهنا نجد أنفسنا أمام ظاهرة جديدة باهتمام المشتغل بالتاريخ . فالعرب الذين غزوا العالم الروماني في القرن السابع وأوائل الثامن كانوا أقل عددا بكثير من الجرمان الذين تدفقوا على قلب ذلك العالم من قبل . ومع ذلك فإن الحضارة الرومانية والكنيسة المسيحية تعطلت في النهاية على هؤلاء الجرمان واستوعبتهم ، في حين كانت القلعة في الجهات التي اقتزعتها العرب واستقروا فيها - مثل الشام ومصر وشمال أفريقية والأندلس - لحضارة العرب وديانتهم . ونحن لا نجد لهذه الظاهرة الهامة البارزة سوى تفسير تاريخي واحد ، هو أن الجرمان لم يكن لديهم ما يواجهون به كنيسة العالم الروماني ، في حين ظهر العرب مزودين بعقيدة جديدة وديانة مساوية أدت الى تماسكهم وحالت دون ذوبانهم في المجتمع الجديد (٣) .

والواقع أن أسباب حركة الفتوح العربية ، والسرعة الفائقة التي تمت بها هذه الحركة ، والنجاح السريع الذي أحرزته ، كانت من الموضوعات التي احتلت جزءا كبيرا من تفكير المؤرخين المحدثين . ذلك أنه لم تكن نمض على وفاة الرسول سبعون سنة حتى كان الاسلام قد امتد من المحيط الهندي حنى المحيط الأطلسي . حقيقة أن ضعف الفرس والروم كان من العوامل المساعدة التي سهلت مهمة الفتوح العربية ، ولكن لابد من وجود قوى دافعة أدت بالعرب الى الصبر على الجهاد طوعا لا كرها ، حتى استطاعوا أن يحدثوا هذه الثورة الضخمة في تاريخ العالم . وهنا حاول بعض الباحثين تفسير هذه القوة على أسس اقتصادية بحتة ، فالأستاذ بيكر Becker يريد أن يثبت أن حركة الفتح العربي في القرن السابع لم تكن مقاضنة - كما تبدو - وإنما هي

(1) Thompson : op. cit. vol. 1. pp. 163-164.

(٢) ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٥١ .

(3) Pierenne : Mohammed and Charlemagne. p. 150.

حلقة أخيرة من سلسلة طويلة بدأت قبل ذلك بعدة قرون وأدت الى خروج كثير من الهجرات السامية من قلب شبه الجزيرة العربية ، نتيجة لتقلب الأحوال الاقتصادية فيها وما أصاب البلاد نتيجة لذلك من ضعف وتدهور يدل على انهيار سد مأرب في القرن السادس (١) . وبعبارة أخرى فان تعرض شبه الجزيرة العربية لأزمات اقتصادية هو الذى دفع شعوبها السامية الى الهجرة ، ولا فرق فى ذلك بين الهجرات السابقة التى قام بها الأراميون والكنعانيون ، أو الهجرات اللاحقة التى قام العرب بها قبل ظهور الاسلام (٢) . ويميل برناردلويس الى مشاركة بيكر هذا الرأى ، فيقول ان بلاد العرب شهدت فى قديم الزمان خصبا عظيما أعقبه جفاف مستمر ، مما أدى الى زحف الصحراء على حساب الأراضى الخضراء ، حتى أخذ سكان هذه البلاد يخرجون منها على هيئة هجرات بعد أن ضاقت سبل العيش فى وجوههم (٣) . أما توماس أرنولد فيعبر عن هذه الفكرة تعبيراً أكثر جرأة وأوضح صراحة حين يقول : ان حركة التوسع العربى كانت هجرة جماعة نشيطة دفعها الجوع والحرمان الى أن تهجر صحاريها المجربة وتحتاج بلاداً أكثر خصبا كانت ملكاً لجبران أسعد منهم حظاً .

ومن الواضح أن هذا الرأى يحوى كثيراً من المبالغة والبعد عن الحقيقة ، لأنه يغفل أثر العامل الدينى والرغبة الصادقة فى الجهاد والاستشهاد ، وهى الروح التى تثبت الوقائع التاريخية أنها سيطرت على جيوش العرب فى الدور الأول من أدوار حركة التوسع . حقيقة ان مؤرخاً محدثاً مثل توماس أرنولد يقول « ان الحماسة الدينية وبواعث العقيدة لم تكن قد تسربت الا قليلاً فى نفوس أبطال الجيوش العربية » (٤) ، ولكن هل نصدق توماس أرنولد فى القرن العشرين أو نصدق حاكماً رومانياً معاصراً فى القرن السابع وقد أرسل

(١) القرآن الكريم سورة سبأ (١٥ - ١٧) :

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 331 (C.H. Becker)

(٣) برنارد لوييس : العرب فى التاريخ ص ٢٨ ، ٥٧ .

(٤) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٤٧ .

(م ١٠ - أوروبا فى العصور الوسطى)

اليه الامبراطور هرقل يوبخه لعجزه عن صد المسلمين ، فرد عليه الحاكم المسيحي قائلا « انهم أقل منا عددا ولكن عربيا واحدا يعادل مائة من رجالنا . ذلك أنهم لا يطعمون قى شىء من لذات الدنيا ويكتفون بالكساء البسيط والغذاء البسيط ، هذا فى الوقت الذى يرغبون فى الاستشهاد لأنه أفضل طريق يوصلهم الى الجنة ، فى حين تعلق نجن بأهداب الحياة ونخشى الموت ، ياسيدى الامبراطور ! » (١) . أما بيرين Pirenne فيؤكد أن الحماسة الدينية وحدها هى التى أدت الى نجاح العرب فى حركتهم التوسعية ، ويقول ان الفارق كبير بين الجرمان أو المغول الذين غادروا بلادهم ومعهم نساؤهم وأطفالهم وعبيدهم ومواشيهم بغية السلب والنهب والحصول على أرض جديدة تدر عليهم من خيراتها ما يكفل لهم عيشا رغيدا ، وبين العرب الذين خرجوا فى أوائل القرن السابع ينادون بأنه لا اله الا الله محمد رسول الله ، دون أن يصطحبوا معهم سوى سيوفهم وخيولهم . حقيقة ان حركة الفتح الاسلامى أعقبها حركة أخرى للهجرة والاستقرار فى الولايات العربية الجديدة التى تم فتحها ، ولكن هذه الحركة الأخيرة لم تبدأ الا بعد أن انتهت الأولى بنحو قرنين من الزمان تغيرت فيها أوضاع البلاد المفتوحة وأصبحت جزءا من الوطن العربى الكبير (٢) .

أما عن نشاط المسلمين البحرى فى البحر المتوسط فيلاحظ أن وصول العرب الى شواطئ هذا البحر واستيلائهم على موانئ الشام ومصر ، جعلهم يهتمون بأمر الأسطول لدفع خطر الروم الذين حاولوا استرداد الاسكندرية سنة ٦٤٢ - ٦٤٣ ثم سنة ٦٥٢ كما استمروا يهددون الغرب بحريا فى فتوحهم الحديدية (٣) . والواقع أن العرب لم يجهلوا البحر فى جاهليتهم ، فقد عرف أهل الجنوب بناء السفن ، وباشروا نوعا من التجارة البحرية النشطة قبل الاسلام ، ولكن عرب الشمال ظلوا بعدين عن ممارسة ركوب البحر حتى

(1) Eyre : op. cit. pp. 63—64

(2) Pirenne : A Hist. of Europe, p. 47

(3) Thompson : op. cit. Vol. I p. 160

كانت الفتوح الاسلامية ، وحينئذ أخذوا يكتفون أنفسهم فى وضعهم الجديد كقوة من قوى البحر المتوسط . ولم يلبث أن أصبح العرب قوة بحرية خطيرة ففوزوا قبرس سنة ٦٤٨ ، وأغاروا على الشواطىء الجنوبية لآسيا الصغرى عدة مرات ، حتى أنزلوا أخيرا هزيمة كبرى بالأسطول البيزنطى فى موقعة ذات النصارى سنة ٦٥٥ (Phoenix) ، وهى الموقعة التى تعتبر أعظم معركة بحرية شهدها البحر المتوسط منذ موقعة إكتيوم سنة ٣١ ق م (١) . وإذا كانت الظروف التى تعرضت لها الدولة الاسلامية عند منتصف القرن السابع قد حالت دون قيام العرب بحصار القسطنطينية عقب هذه الموقعة ، فإن الأمويين لم يلبثوا أن استأنفوا سياسة مهاجمة الدولة البيزنطية برا وبحرا على نطاق واسع حتى وصلت اغاراتهم الى بحر ايجه سنة ٦٦٥ . ويبدو أن المسلمين كانوا قد أحرزوا خبرة كافية بفنون البحر جعلتهم يعبرون الى تراقيا (٦٦٨ - ٦٦٩) ويهاجمون القسطنطينية نفسها . كذلك أفاد العرب من استيلائهم على قبرس ورودس وغيرها من المواقع البحرية الحصينة فى بحر ايجه ، فقاموا بعدة محاولات للاستيلاء على القسطنطينية استمرت خمس سنوات (٦٧٣ - ٦٧٨) (٢) . ولم ينقذ عاصمة الامبراطورية البيزنطية من السقوط فى أيدي المسلمين عندئذ سوى اختراع النار الاغريقية الذى توصل اليه مهندس سورى الأصل يدعى كالينيقيوس Callinicus . أما هذا الاختراع فعباره عن عدة مركبات تشتعل عندما تصيب الهدف ، مما أنزل بالسفن الاسلامية خسائر جسيمة (٣) .

وهكذا لم يكف المسلمون عن مهاجمة الدولة البيزنطية برا وبحرا ، حتى كانت أوائل القرن الثامن ، وعندئذ اعتقد الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك (٧١٥ - ٧١٧) أن الوقت قد حان للقيام بحملة كبرى تستولى على القسطنطينية وتطبع بالامبراطورية البيزنطية . واختار الخليفة أخاه مسلمة ليكون على

(1) Oman : The Dark Ages, p. 239

(2) Diehl : Hist. of the Byzantine Empire, p. 44

(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 283.

رأس هذه الحملة التي شقت طريقها عبر آسيا الصغرى حتى بلغت البسفور وعبرته الى الشاطئ الأوربي سنة ٧١٧ (١) • وبينما أطبق المسلمون على القسطنطينية من ناحية البر ، اذا بالأسطول الاسلامي يهاجمها من ناحية البحر ، حتى كادت المدينة تقع فى أيدي المسلمين لولا النار الاغريقية التي لعبت دورها فى تشتيت سفنهم ، فى الوقت الذى أغرى الامبراطور ليو الأيسورى (٧١٧-٧٤١) البلغار بهاجمة المسلمين من الخلف (٢) • وعندما سمع الخليفة عمر بن عبد العزيز بحرج موقف المسلمين أمرهم بالانسحاب سنة ٧١٨ بعد أن ظلوا على حصار القسطنطينية أكثر من عام (٣) • وهكذا تم تجنيب الامبراطورية البيزنطية ، بل أوروبا بأجمعها تغييرا خطيرا كان من الثابت أن يترك أثرا بعيدا فى التاريخ لو أن العرب نجحوا فى تحقيق هدفهم بالاستيلاء على القسطنطينية ، مفتاح أوروبا من جهة الشرق •

وبعد أن فشل المسلمون فى الاستيلاء على القسطنطينية فى أوائل القرن الثامن تشجع البيزنطيون وأخذوا يدفعون ضغط المسلمين تدريجيا عن آسيا الصغرى ، حتى غامر الامبراطور قسطنطين الخامس بشن هجوم على الشام سنة ٧٤٥ متتهزا فرصة الضعف الذى أمتست فيه الخلافة الأموية فى أواخر عمرها • وفى العام التالى أحرز البيزنطيون نصرا بحريا على المسلمين واستردوا منهم جزيرة قبرس (٤) • ولم تلبث سنة ٧٥٠ أن شهدت سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية فى بغداد • وهنا نلاحظ أن اتخاذ الأمويين بلاد الشام مركزا لهم جعلهم قريين من آسيا الصغرى والأراضى البيزنطية بحيث كان الضغط الاسلامي على الدولة البيزنطية شديدا وملموسا فى العصر الأموي • ولكن اتجاه العباسيين نحو العراق وبغداد جعل مركزهم أكثر بعدا عن الدولة البيزنطية وأراضيا ، ومن ثم قل الضغط الاسلامي على حدود هذه

(١) Idem : pp. 313—314

(٢) Ostrogorsky, op. cit. p. 139

(٣) Diehl : Hist. of the Byzantine Empire, p. 54,

(٤) Cam. Med. Hist. Vol. 4 pp. 121—122

«الدولة بصورة واضحة في العصر العباسي (١) * ولكن ليس معنى ذلك أن العباسيين لم يهددوا الدولة البيزنطية ، إذ كثيرا ما أوغلت الجيوش العباسية داخل آسيا الصغرى ، حتى وصلت سنة ٧٨٢ الى البسفور ، مما اضطر الامبراطورة ايرين الى شراء مسالة المسلمين بالمال (٢) * هذا في الوقت الذي استمرت اغارات العرب البحرية على شاطئ الدولة البيزنطية وتغورها ، حتى استولى المسلمون سنة ٦٠٤ على سالونيك ونهبوها وأسروا بضعة آلاف من أهلها *

ويلاحظ أن صعود الدولة البيزنطية ونجاحها في صد المسلمين ، في الوقت الذي نجح الفرنجة في صد مسلمي الأندلس عن غاليا وغرب أوروبا ، كان له أثر كبير في مستقبل تاريخ القارة الأوروبية * ذلك أن الدولة البيزنطية ظلت حتى الفتوح الإسلامية تمثل المركز الأساسي للحضارة الأوروبية في العصور الوسطى ، ولكن هذه الصفة أخذت تزول عنها عقب حركة التوسع الإسلامي لتقوم الدولة البيزنطية بوظيفة الحد الشرقي للحضارة الأوروبية لا مركزها الأساسي * وهكذا أخذ التاريخ البيزنطي منذ اتساع الفتوح الإسلامية يفقد أهميته العامة ، بعد أن صارت الدولة البيزنطية لا تعدو أن تكون درعا يحمي أوروبا من خطر آسيا ، في حين انتقل مركز الثقل للحضارة الأوروبية الى الغرب (٣) *

✓ على أن أثر العرب والإسلام في تاريخ العصور الوسطى لا يقف عند التأثيرات السياسية التي أحدثوها في أوضاع العالم المعروف ، وإنما يبدو هذا الأثر أشد ما يكون وضوحا في الميدان الحضاري * وهنا نجد الحضارة العربية الإسلامية تقوم على دعائمين أساسيين هما اللغة العربية والديانة الإسلامية (٤) * وما زالت السرعة التي انتشرت بها اللغة العربية والديانة

(1) Painter : op. cit. p. 44

(2) Vasiliev : op. cit. Tome I p. 317

(3) Eyre : op. cit. p. 64

(4) Pirenne : A Hist. of Europe, p. 48

الاسلامية تعتبر لغزا يثير حيرة المفكرين • فاللغة العربية ليست باللغة السهلة. القليلة التعقيد حتى يقال ان سهولتها أدت الى سرعة انتشارها من المحيط. الأطلسي حتى الخليج العربي ، ومع ذلك فقد نجحت اللغة العربية. في أن. تبسط سيادتها على جميع البلاد التي فتحها العرب وحكموها زمنا طويلا . باستثناء فارس • لذلك لم يستطع الباحثون تفسير ظاهرة انتشار اللغة العربية. الا في ضوء انتشار العقيدة الاسلامية نفسها وما تطلبته هذه العقيدة من معرفة بقواعد اللغة العربية لأداء فروض الدين • ويقول بيكر أن أوروبا العصور الوسطى نظرت الى انتشار الاسلام من وجهة النظر الكنسية الدينية • وكان الكنيسة قد أفزعها وآلمها ضياع بلاد مثل الشام ومصر وشمال العراق ترتبط جميعا بأصول المسيحية ونشأتها ، فراحات تفسر انتشار الاسلام في هذه البلاد على أنه لم يتم الا بحد السف (١) • ولكن بيكر يؤكد أن هذه النظرة - التي ما زال بعض المتعلمين في أوروبا حتى اليوم يعتقدون في صحتها - بعيدة عن الواقع ، لأن الوثائق المعاصرة كلها تثبت أن العرب لم يفرضوا دينهم على أهالي البلاد المفتوحة ، وانما فرضوا سيطرتهم السياسية لا غير • فسيطرة العرب السياسية هي التي انتشرت بقوة السلاح ، أما الديانة الاسلامية نفسها فقد وجدت سبيلها الى قلوب نسبة كبيرة من أهالي البلاد المفتوحة ، بدليل ما أجمعت عليه الوثائق من تسامح العرب المطلق مع المسيحيين واليهود سواء ، وهو تسامح لم يحفظوا به في ظل حكاهم السابقين (٢) •

وقد أجمع الباحثون أن الحضارة الاسلامية كانت أعظم حضارة شهدتها العالم في العصور الوسطى • فالعرب لم يكونوا مثل غيرهم من العناصر البربرية من جرمان ، وغير جرمان الذين انسابوا داخل الامبراطورية الرومانية ، والذين لا تقترن أسماؤهم في التاريخ غالبا الا بالهدم والتخريب (٣) • وفي الوقت الذي نسمع بما أحدثته اغارات الهون والوندال والقوط من تخريب

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 330

(2) Ibid.

(3) Pirenne : A Hist. of Europe, p. 46

شامل لكثير من أقاليم أوروبا وأفريقية ، اذا بالبلاد التي فتحها العرب واستصروا فيها تنحول الى مراكز حضارية كبرى يقصدها طلاب العلم والمعرفة من مختلف أنحاء العالم المعروف للتزود والاستنارة • وحسبنا أن نوازن بين أحوال بعض البلاد الأوربية مثل أسبانيا وصقلية ، قبل فتح العرب لها وأحوالها بعد استقرارهم بها ، اذ تبدلت أوضاعها من جهل وتأخر وانحلال وخراب الى نشاط فكري وتقدم اقتصادي وعمران شامل وازدياد مطرد في السكان والأموال (١) •

حقيقة ان العرب عندما خرجوا من شبه الجزيرة العربية في القرن السابع ليقوموا بحركتهم التوسعية الكبرى لم يكن لديهم تراث حضارى شامل بمعنى الكلمة • ولكن العرب كان لديهم ما هو أهم من ذلك وهو القدرة على استيعاب حضارات الآخرين وتشرب أصولها • وبفضل هذا استطاع العرب أن يتشربوا بسرعة ما وجدوه من دراسات وثقافات في غرب آسيا وشمال افريقية ، وهى الدراسات اليونانية التي ترجمها الأراميون والكنعانيون الى لغاتهم السامية حتى جاء العرب لينقلوها الى العربية (٢) • وهكذا أثبتت الأبحاث الأخيرة فساد النظرية القائلة بأن العرب قضوا على الحضارة القديمة في منطقة الشرق الأدنى وأقاموا بدلا منها حضارة جديدة ، لأن التطور التاريخي ثابت ومستمر • وبعبارة أخرى فان الاسلام ورث الحضارة الشرقية الهلنيسية وتعهد هذه الحضارة بالحفظ اولعناية والتغذية المستمرة • ولكن حدث عندما نقل الخلفاء العباسيون عاصمة الخلافة من دمشق الى بغداد أن أخذ الأثر الهلنيسى يضعف - الى حد ما - فى الحضارة الاسلامية ليزداد فهما أثر الحضارات الشرقية كالفارسية والهندية والصينية • وكان ذلك فى الوقت نفسه الذى أخذ غرب أوروبا يزداد - هو الآخر - تباعدا عن الحضارة الهلنيسية بعد قيام الممالك الجرمانية ، مما أدى الى التباعد واتساع الفجوة بين الحضارتين الاسلامية والغربية (٣) • وهكذا غدت الحضارة الاسلامية

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 432—435

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 330

(3) Ibid.

مجتمع العلوم اليونانية والفارسية والسريانية والهندية والصينية ، فى حين غدت
اللغة العربية الواسطة الأساسية للترجمة والربط بين هذه العلوم مما جعل
الطابع العربى يبدو مميزا لهذه النهضة الحضارية الشاملة (١) .

وكان أن أفاقت أوروبا من وحشة العصور المظلمة فى أواخر القرن الحادى
عشر لتجد نفسها أمام حضارة اسلامية شامخة البناء ، فأخذت أوروبا تقبل على
هذه الحضارة الزاهرة ، وأسرع الأوروبيون الى مراكز الحضارة الاسلامية
يرتشفون من معيها الفياض ويرتوون من منهلها العذب . وازداد تدفق طلاب
العلم الأوربيين بوجه خاص على الأندلس وصقلية حيث أخذوا يترجمون الى
اللاتينية كل ما استطاعوا ترجمته فى الفلسفة والعلوم والرياضيات وغيرها
من ألوان النشاط الفكرى (٢) . حقيقة أن بعض هذه المعلومات التى ترجمها
الغربيون عن العربية كانت يونانية الأصل أخذها العرب عن التراث اليونانى
القديم ، ولكن الفضل يرجح اليهم فى المحافظة عليها وتصحيحها وشرحها ،
حتى اذا ما اندثر التراث اليونانى - أو كاد يضيع - فى الفترة المظلمة الى
أعقب سقوط الامبراطورية فى الغرب ، لم يبق التراث اليونانى الفكرى
قائما فى كثير من الحالات الا فى التراجم العربية (٣) . وحسبنا ما أحدثه
شروح ابن رشد لفلسفة أرسطو من ثورة ضخمة فى أوروبا العصور الوسطى (٤) ،
وما سببته معارف العرب فى الحساب والهندسة والجبر وحساب المثلثات من
انقلاب شامل فى تطور التفكير الرياضى الأوربى ، وما ترتب على انتقال
معلومات العرب فى انفلك والجغرافيا الى الأوربيين من تطور شامل ، وما
اعترف به الأوربيون أنفسهم من تقدم العرب فى الطبيعة والكيمياء والطب ،
حتى استمرت الجامعات الأوربية منذ العصور الوسطى حتى القرن الثامن
عشر تعتمد على كتبر من مؤلفات المسلمين فى هذه العلوم (٥) . هذا كله

(1) Deanesly : op. cit. p. 270 & Pirenne : A. Hist. of Europe, p. 48

(2) Haskins : The Renaissance of the Twelfth Century. p. 287.

(3) Eyre : op. cit. pp. 273—279

(4) Carr. Med. Hist. Vol. 4 p. 296.

(5) Eyre : op. cit. pp. 793—294

فضلا عن تفوق المسلمين فى الفنون الكبرى والصغرى ، مما جعل الأوروبيين يقبلون فى شغف على محاكاة النماذج العربية ويتأثرون بها بدرجة لا تزال واضحة فيما خلفته العصور الوسطى من مخلفات وآثار متنوعة (١) . وهكذا أصبح نفوذ العرب وتأثيرهم الحضارى على غرب أوروبا منذ القرنين الثانى عشر والثالث عشر يفوق نفوذ الامبراطورية البيزنطية فى أثره وقوته (٢) .

ولا حاجة بنا الى القول بأن روح التسامح السامية التى عرف بها العرب والتى لا يوجد لها أى نظير فى الشرق أو فى الغرب فى العصور الوسطى ، كان لها أكبر الأثر فى تفهمهم للحضارات الأخرى السابقة تفهما واضحا صحيحا وفى تفهم الأوروبيين لحضارتهم تفهما مفيدا واقعيا (٣) . ذلك أن العرب لم يفرقوا فى نشاطهم الحضارى بين المسلمين وغير المسلمين ، وسمحوا للمسيحيين واليهود بالتعلم عندهم والاستفادة منهم ، فأقبل الأوروبيون فى الأندلس وصقلية والشام وغيرها على دراسة معارف المسلمين وترجمتها مما ساعد على نهضة أوروبا فى العصور الوسطى (٤) .

(1) Lehabby : The Lagacy of the Middle Ages, p. 61.

(2) Orton : op. cit. p. 91

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 4 p. 287

(4) Thompson : op. Vol. 1 pp. 92—93